حركة الفقه الإسلامي

« فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة
ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم
إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون »
« قرآن كريم »

حلمي شحاته

obeikandl.com

obeikandl.com

تصدير

بقلم الأستاذ الكريم عبد العزيز بك عطيه

المراقب المساعد لمنطقة البحيرة التعليمية

ورئيس الإخوان المسلمين بالاسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله وأصلى على سيدنا ومولانا محمد الهـــادى إلى سبيل الرشاد (وبعد) فقد قرأت هذه الرسالة « حركة الفقه الإسلامى » للأخ الأستاذ حلمى شحاته وقد سرنى فيها بحث عميق واطلاع واسع دقيق . وقد بحث الأستاذ فيها تطورات الفقه الإسلامى فى أعصاره الأولى من لدن الرسالة حتى شيوع المذاهب الفقهية ودعا الاستاذ إلى اتباع فقه السنة بعدما أوضح اختلاف مآخذ الفقه عند الأئمة .

وإذا كان عصر الرسول صلى الله عليه وسلم لم يجتمع فيه من القضايا والأمور المستحدثة ما حصل فى العصور بعده وكذلك عصر

الخلفاء فإنه لابد من القياس فيما يمكن القياس فيه والاجتهاد بما يمكن الاجتهاد فيه بما لايخرج عن أصول الدين . ولقد حصل الاجتهاد فى عصر الرسول ممن كانوا يرسلون إلى الأقاليم ليعلموا الناس ويرشدوهم وحصل مثل ذلك فى عصر الخلفاء والتابعين .

وليس أصحاب المذاهب إلا أصحاب رأى واجتهاد وعلم بعدوا قليلا أو كثيراً عن عصر الرسالة واستحدثت أمامهم أقضية مختلفة فى بلاد ذات عوائد ومدنيات مختلفة فكان لابد من استحداث آراء وقواعد تحل على أساسها مشاكل الناس .

وهؤلاء لم يبعدوا عن الحديث والكتاب ولم يدّعوا لأنفسهم علما خاصا إنما آراؤهم تنوعت بحسب ماتوافر لدى كل منهم من أسباب الاستدلال . وكانوا كلما أعوزهم الحديث جابوا الآفاق إليه وانتهلوا منه ، ولم يكن يعوزهم فهم القرآن ومعرفة كيفية الأخذ منه إذ كانوا علماء لغة كما كانوا علماء شريعة .

وقد دون أصحاب المذاهب مذاهبهم فى الفقه سواء كان فى العبادات

أو المعاملات على الطريقة العلمية بعد الترتيب والتهذيب والتبويب وجاء أتباعهم فزادوا فى ذلك الترتيب وأكثروا من الشروح وأضافوا الفتاوى بما جعل هذه المذاهب صالحة للأخذ منها والتعلم بيسر وسهولة .

والرأى عندى أن الاقتصار على فقه السنة مايزال محتاجا إلى بحث طويل وأن فقه السنة نفسه مايزال محتاجا إلى تبويب على وبحث تجريبى وتطبيق كثير حتى يتيسر الأخذ منه لا فى العبادات وهى أيسر أخذا بل فى المعاملات والفتاوى الفقهية فى البيع والرهن والحيازات وغيرها . وإلى أن يتيسر ذلك ويتوسع فيه وتؤلف فيه الموسوعات العلمية فاننا نأخذ منه ومن المذاهب القويمة مانقيم به أمور الدين .

هدانا الله إلى العمل بكتابه وسنة رسوله والسلام ؟

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

« ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين »

رأيت فى المسلمين اضطرابا فى الأخذ بأساليب الفقه، فمنهم من يتبع « فقه المذاهب » ومنهم من يتبع « فقه السنة » .

والذين يتبعون فقه السنة ينعمون بخير عميم لنقاء المصادر التى يستقون منها وصفاء المنهل الذى يغترفون منه ، ويناون بأنفسهم عن مواطن الفرقة والخلاف .

بيد أنه لزام عليهم أن يبينوا للناس عن حقيقة فقههم وعن مصادره وعن نشأته وتطوره ؛ حتى يعم الناس نفعه فينعموا بمثل ما نعم به أنصار السنة وأتباعها .

حقيقة إنهم لم يقصروا فى إبانة ذلك للناس ، وغاية الأمر أنهم لم يفصلوا القول فيه تفصيلا واكتفوا بأن يعطونا فكرة عامة عابرة عنه .

لهذا أرانى مدفوعا إلى أن أتقدم بجهد متواضع فى هذا السبيل ؛ لعل علماءنا وفقهاء سنة نبينا يفصلون القول فيه تفصيلا ويظهروننا منه على ما لم نكن نعلم ، وآمل أن يثير ذلك همتهم فيشفوا غلتنا وينقعوا ظمأنا .

ولم أشأ أن أقتحم باب الموضوع اقتحاما وإنما آثرت أن استخلص الرأى فيه استخلاصاً ؛ لهذا تناولت « حركة الفقه الإسلامى » فى شتى عصورها واستخلصت منها لزوم اتباع فقه السنة .

فإن أكن وفقت إلى ما أردت فذلك ما تمنيت، وإن أكن أخفقت أو أخطأت أو قصرت فمعذرى فى ذلك أنى لا أزال فى أول الطريق إلى الحقيقة وفى مرحلة بدء المعرفة وفوق كل ذى علم عليم .

علي شلبي

الإسكندرية فى { ١١ من جمادى الآخرة سنة ١٣٧٠
{ ١٩ من مارس سنة ١٩٥١

حركة الفقه الاسلامى

نتتبع هنا بالدراسة حركة الفقه فى عصوره المختلفة لنعلم م يستقى ، وما هى صوره : ما هو فقه السنة وما هو فقه المذاهب، ولم نلزم باتباع هذا النوع الأول من الفقه .

.....

أولا : عصر الرسالة والخلافة

١ ـ نزل القرآن المبارك على محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد بين الله سبحانه وتعالى فيه أحكام الفقه من معاملات وعبادات وحدود وغيرها ، وأمرنا أن نتعبد . بما جاء فيه ، فكان القرآن بذلك المصدر الأول لشريعتنا .

٢ ـ وأمرنا الله أن نطيع نبيه وأن نحتكم إليه « قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » « من يطع الرسول فقد أطاع الله »

« قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » « فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول » « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما .

ومن هنا كان اتباع الرسول لازما فيما يبلغه عن صاحب الشرع سبحانه وتعالى من سنة أوحى بها ، أو لم يوح بها وأقره الله عليها ، وسواء كانت قولا منه صلى الله عليه وسلم أو فعلا أو إقرارا .

وبذلك كانت السنة المصدر الثانى لشريعتنا .

٣ ـ ولكن شيئا افترقت به السنة عن القرآن ، وهو أن القرآن دوّن كله فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فكلما نزلت منه آيات أمر النبى كتّاب الوحى بتدوينها ، أما السنة فلم أمر النبى بتدوينها بل تركت مفرقة فى صدور أصحابه ، حية فى أعمالهم ، لا يجمعها كتاب ولا يضمها سجل ؛ حتى إن الإمام

أحمد بن حنبل يروى لنا فى مسنده عن أبى هريرة قال : «كنا قعوداً نكتب ما نسمع عن النبى ، فخرج علينا فقال : ماذا تكتبون ؟ فقلنا : ما نسمع منك ، فقال : أكتاب مع كتاب الله ؟ فقلنا : ما نسمع ، فقال : اكتبوا كتاب الله ، ، امحضوا كتاب الله ، قال : فجمعنا ما كتبنا فى صعيد واحد وأحرقناه بالنار . »

فالرسول إذن لم يكن يأمر بتدوين السنة على غرار ما كان يأمر بتدوين آى الكتاب ، وذلك لما كان يخشاه من أن تختلط السنة بالكتاب فإذا أمن الخلط بينهما أجاز كتابة السنة ، وفى ذلك يروى لنا ابن عبد البر فى « جامع بيان العلم » أن عبد الله ابن عمرو بن العاص قال : «كنت أكتب كل شىء أسمعه من رسول الله أريد حفظه ، فنهتنى قريش وقالوا : اتكتب كل شىء تسمعه ورسول الله يتكلم فى الرضا والغضب ، فأمسكت عن الكتابة فذكرت ذلك لرسول الله ، فأومأ بأصبعه إلى فيه وقال : اكتب ، فوالذى نفسى بيده ما يخرج منه إلا حق » .

زد على ذلك أن النبى كان يأمر بتبليغ السنة وحفظها والتمسك بها ؛ فكان يقول : « ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب ، فرب مبلغ أوعى من سامع » . وكان يقول : « نضر الله امرءا سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغه غيره ؛ فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه . »

وكان يقول : « لقد تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما : كتاب الله وسنتى » .

٤ ـ وهكذا انتهى عهد الرسالة والسنة ليست مدونة كلها كالقرآن ، وجاء عهد الخلافة فأخذ الخلفاء يتبعون ما نطق به الرسول من قول ، وينفذون ما قام به من فعل ، ويقرون ما أقره ، وينكرون ما أنكره ، ويسيرون فى كل ذلك على ما رأوا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فإذا عرضت لهم حادثة بحثوا فى كتاب الله عن حكمها فإن وجدوه فيها ونعمت وإلا بحثوا فى سنة رسول الله ، وإلا أعملوا فكرهم واجتهدوا مستندين فى ذلك إلى الأصول العامة المستقرة فى الكتاب والسنة

والتى قامت عليها الشريعة يؤيدهم فى ذلك حديث معاذ بن جبل حين بعثه رسول الله إلى اليمن وسأله »: بم تقضى؟ قال: بكتاب الله . قال: فإن لم تجد . قال: فبسنة رسول الله . قال . فإن لم يجد . قال: أجتهد رأيي . قال رسول الله: الحمد لله الذى وفق رسول الله إلى ما يرضى الله ورسوله » . وبهذا فتحت الشريعة للمؤمنين بها باب الاجتهاد على مصراعيه .

ثانيا: عصر المذاهب

١ ـ ظل الناس فى عهد الخلافة يتعبدون بما رأوا عليه النبي وصحابته حتى كان ظهور أبي حنيفة النعمان فى الكوفة » فقسم مسائل الفقه ووضع لها الأصول والقواعد ، وكون لنفسه مجموعة من الآراء فى الفقه دونها تلاميذه أطلق عليها اصطلاح « مذهب أبي حنيفة».

وقد امتدت حياة أبي حنيفة من سنة ٨٠ هجرية إلى سنة ١٥٠ ، أى ٧٠ عاما ، نشر فيها مذهبه وتبعه تلاميذ أكبرهم أبو

يوسف الذى كان قاضى القضاة فى الدولة العباسية .

٢ ـ ومن بعد أبى حنيفة ظهر إمام المدينة مالك بن انس وكون لنفسه مذهبا جديدا يختلف بطبيعة الحال فى أمور عن مذهب أبى حنيفة

وقد امتدت حياته من سنة ٩٣ إلى سنة ١٧٩ هجرية.

٣ ـ وقد تتلمذ له كثيرون منهم الشافعى الذى صار إماما وصاحب مذهب كبير وامتدت حياته من سنة ١٥٠ هجرية إلى سنة ٢٠٤ . ولما رحل إلى مصر سنة ١٩٩ غير فى آرائه واستحدث آراء جديدة لم يكن يراها فى العراق .

٤ ـ ثم جاء من بعده أحمد بن حنبل وتتلمذ للشافعى ثم كون مذهبا مستقلا ، وقد امتدت حياته من سنة ١٦٤ إلى سنة ٢٤١ هجرية .

هذه هى المذاهب الأربعة المشهورة ، ولكن ليست هى وحدها المذاهب التى ظهرت على مسرح الفقه ، فقد ظهر غيرها كثير مثل مذهب الأوزاعى ومذهب الليث بن سعد الذى قال

فيه الشافعى : الليث بن سعد أفقه من مالك ولكن قومه ضيعوه (لم يدونوا مذهبه) ، ومذهب داود الظاهرى الذى بناه على أساس العمل بظاهر الكتاب والسنة .

والذى نلاحظه على عصر المذاهب مايأتى :

ا ـ أن المذاهب تقوم على الاجتهاد ، ولا اجتهاد إلا عن مستند والمستند كتاب الله وسنة رسوله .

ب ـ أن الخلاف بدأت تظهر صوره بين جماعات المسلمين أو بين مدارس الفقه أو بين المذاهب .

جـ ـ على أن أهم مايلاحظ هو أن المذاهب بدأت بالاعتماد على الرأى إلى حد كبير ثم أخذت تنحو نحو الحديث بعد ذلك شيئاً فشيئاً ، فكان أول هذه المذاهب ـ هو مذهب أبي حنيفه ـ أكثر المذاهب عملا بالرأى حتى إنه قيل إن أبا حنيفه لم يرو سوى سبعة عشر حديثا ، ثم إذا جاء من بعده مالك بن أنس وجدناه يضع لنا كتابه « الموطأ » بتكليف من الخليفة المنصور ويجمع فيه مجموعة من الأحاديث ويأتى من بعده الشافعى فيضع

أيضا كتابه « الأم » ثم يأتى من بعده أحمـــد بن حنبل فيضع « مسنده » ويجمع فيه من أحاديث الرسول الشيء الكثير ، بل وتغلب عليه نزعة الاعتماد على الأحاديث واحصـــائها حتى اعتبروه محدثا أكثر منه فقيها .

ثالثاً : عصر تجميع السنة

على أن حادثاً جليلا له خطره وقع فى عصر الإمام الرابع أحمد بن حنبل غير مجرى الأمور تغييرا بعيداً ، ألا وهو بدء حركة تدوين الأحاديث على نطاق واسـع وبصورة دقيقة ؛ فقد عاصر الإمام أحمد ظهور البخارى أول من أنفق حياته وبذل عمره وأخلص نفسه لجمع الأحاديث وتمحيصها ، ولقد اشترط على نفسه شروطاً لقبول الحديث قصد منها إلى التحرى والتدقيق والاحتياط والتأكد من صحة الحديث ؛ لهذا كان أصح كتاب بعد كتاب الله .

وامتدت حياة البخارى من سنة ١٩٤ هجرية حتى ســـنة

٢٥٦ ، ولقد فتح أفاقا جديدة فى عالم الفقه الإسلامى ، بل إنه حول تيار الفقه ؛ فقد تبعه فى حركة تدوين الأحاديث كثير من أصحاب الصحاح والسنن ـ فظهر بعده صحيح مسلم والترمذى والنسائى وابن ماجة وأبو داود كما ظهر من أصحاب السنن الحاكم صاحب المستدرك والدارمى والبيهقى وكثير غيرهم.

وبظهور كتب السنة هذه تحول تيار الفقه وتغير مجرى الأمور ؛ إذ أصبح لزاما علينا أن نرجع إلى ما فيها من سنة ونعمل بها قبل أن نرجع إلى المذاهب نتعرف حكمها ، ولئن جاز لنا قبل تدوين السنة أن نتبع المذاهب فإنه لا يجوز ذلك بعد تدوينها ، وذلك للأسباب الآتية :

١ ـ إن أئمة المذاهب أنفسهم أمرونا باتباع الحديث إن صح ولو خالف مذهبهم :

ا ـ فمالك يقول وهو فى مسجد رسول الله : « كل يؤخذ من كلامه ويرد عليه إلا صاحب هذا القبر » ـ وأشار إلى قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ب ـ والشافعي يقول : « إن صح الحديث فهو مذهبي ».

ومنهم من يقول : « لا تأخذوا بقولنا حتى تعلموا من أين أخذنا » ويقول : « إذا رأيتم الحديث فخذوا به وألقوا بكلامي عرض الحائط ».

٢ ـ إن حركة التدوين لم تدرك من المذاهب إلا أواخر عهدها ولم تظهر إلا في عهد آخر أئمتها، ولو أنها سبقت المذاهب لكان لأصحابها موقف آخر ، إذن لسلموا بما دون من صحاح الأحاديث ولاستقاموا على طريقتها واتكأوا على سنادتها .

٣ ـ أن الرسول عليه الصلاة والسلام يقول : « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » أي كل عمل لا يوافق سنتنا فهو مردود على صاحبه . وقد ظهر فعلا أن بعض الآراء التي تمخضت عنها المذاهب لم توافق السنة ، ومن أمثلة ذلك :

١ ـ ذهب الحنفية إلى اشتراط الكفاءة في الزواج ، فالعربية للعربي والقرشية للقرشي ، وأقاموا الكفاءة على أساس العنصرية والنسب ، فخالفوا بذلك سنة الرسول الناطقة بأن « الناس

سواسية كأسنان المشط ، وقول الله تعالى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم ».

كما اشترطوا ألا يقل المهر عن ١٠ دراهم أو سبعة مثاقيل وسندهم فى ذلك ضعيف.

ب ـ أن الشافعية أحلوا ذبيحة المسلم المتعمد ترك التسمية رغم قوله تعالى «ولاتأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه . واعتمدوا فى ذلك على سند ضعيف . « المسلم يذبح على اسم الله ـ سمى أو لم يسم » .

٤ ـ إن المذاهب لم تتجمع لديها من الأحاديث الصحيحة مثل ماتجمع لدينا الآن ، ولقد قدمنا أن أول المذاهب ظهوراً كان أقلها حديثا وكان أكثرها عملا بالرأى ، وفى إطلاق العنان للرأى تعريض للزلل والخطأ .

٥ ـ إن المذاهب اختلفت فيما بينها لا فى فروع المسائل فحسب ، وإنما فى قواعد أصول الفقه أيضا وفى مناهج البحث

وفى طرائق استنباط الأحكام من النصوص - ومن أمثلة ذلك :

ا - أن مايفهم من عكس النص ، وهو مايسمى مفهوم المخالفة ، ليس حجة عند الحنفية) وهو حجة عند الشافعية .

ب - أن دلالة « العام » (أى اللفظ الذى يتناول أفرادا غيره تندرج تحته) قطعية عند الحنفية وظنية عند أكثر المالكية والشافعية .

٦ - أن الاختلاف بين المذاهب أدى أحيانا إلى تعصب بغيض مقيت - حتى إن بعض الشافعية مثلا كان يحرم على نفسه تزويج ابنته للمالكى ، فإن أجاز ذلك فعلى قياس جواز زواج المسلم بالكتابية ، وكان بعض الحنفية يحرم على نفسه الصلاة وراء إمام حنبلى ، وأن اتباع المذاهب فى الأزهر كان يضرب بعضهم وجوه بعض حمية وتعصبا وقد نهوا عن ذلك على لسان الرسول والقرآن .

٧ - أن الخلاف لم يقع بين مذهب ومذهب فحسب ؛ بل

وبين أتباع المذهب الواحد أنفسهم فكل مذهب هو مدرسة فقهية تضم مجموعة من الآراء لايجمعها إلا وحدة الاتجاه فى التفكير .

٨ ـ أن الاختلاف دائما سبيل إلى الفرقة والعداوة وأما من قال : « اختلافهم رحمة » فهو كالذى يغرى الناس بالشر ويبغى الفتنة بين القوم ، ولم يكن الخلاف رحمة فى يوم من الأيام وقول الله تعالى قائم يشهد « ولا يزالون مختلفين ، إلا من رحم ربك » ، فمن رحمه الله أنقذه من الفرقة والاختلاف.

٩ ـ إنه من العبث التوفيق بين آراء المذاهب وإبراز مجموعة « للفقه على المذاهب الأربعة » فأيسر منه تكليفا وأخف مئونة أن نذيع سنة الرسول وكتب أحاديثه .

ثم من الذى قال إن المذاهب أربعة فقط حتى نجمعها فى سفر واحد ؟! وكيف نغفل المذاهب الأخرى كمذهب الأوزاعى والظاهرى والزيدى وغيرهم ؟!

١٠ ـ إن تقليد إمام واحد فى كل ما صدر عنه فضلا عن

أنه مستحيل ، فهو كذلك غير جائز ، لأن التقليد المطلق ينقلب إلى عبادة مطلقة .

ولذلك فإن أحدا من الأئمة لم يلزم الناس باتباع مذهبه ، ولكن أتباعه هم الذين ألزموا أنفسهم باتبـــاعه وحصروا أنفسهم فى نطاقه .

١١ ـ انه ليس ثمة أى معيار للتفضيل بين مذهب ومذهب وانتشار مذهب وانزواء آخر لا يرجع الى قوة الأول وصحة آرائه ولا إلى ضعف الثانى وسقم أفكاره ، بل إن العوامل السياسية كان لها فى أغلب الأحيان الأثر الفعال فى ذيوع المذهب أو خموله ، فمذهب أبى حنيفة ذاع وانتشر لأن الســـلطان احتضنه فمن الثابت فى التاريخ أن الخليفة العباسى اتخذ أبا يوسف قاضى قضاة دولته وكان أغلب القضاة الذين يختارهم من الحنفية وجاءت الحكومات الإسلامية المتعاقبة فرأت ذلك المذهب مطبقا فى محاكمها فتبعته واستقرت عليه ، وأصبح الجمهور كذلك ملما به عالما بأحكامه ، فالروح الديوانية إذن هى التى جعلت

الحكومات تميل إلى الإبقاء عليه، وظل المذهب الحنفي هو المطبق في دور القضاء حتى الدولة العثمانية بل وحتى يومنا هذا في المحاكم الشرعية دون غيره من المذاهب .

على حين أن مذهب أحمد بن حنبل لم يتح له نصيب وافر من الذيوع والانتشار لأن الظروف السياسية لم تواته .

١٢ ـ إن أئمة المذاهب وان كلا منهم من رسول الله ملتمس ـ إلا أنهم لم يلتمسوا أو لم يستطيعوا أن يلتمسوا من الرسول بقدر ما التمسناه منه في كتب السنة ، لأنهم حين بدءوا تشييد مذاهبهم لم تكن الأحاديث جمعت كاليوم ولم تكن المطابع قد ذاعت كالآن .

رابعا : قفل باب الاجتهاد

وفي القرن الرابع أعلنت مجموعة من العلماء الرسميين بايعاز من السلطان قفل باب الاجتهاد ، لما قيل من انتشار فوضى الآراء في ذلك العهد .

والواقع من الأمر أن الذين قرروا قفل باب الاجتهاد كانوا قوما ضعفت ثقتهم بأنفسهم واثاقل عليهم الركود والجمود حتى قالوا إنه ليس فى عصرهم من تتوافر فيه شروط المجتهد، وأنه لن يوجد فى المستقبل من تتوافر فيه هذه الشروط، وعليهم إزاء ذلك أن يعكفوا على تقليد المذاهب دون أن يستحدثوا جديداً فيها.

وقد كان ذلك عقالا للتفكير الإسلامى وسجن لعقول المسلمين وغلا قيد الأفهام ردحا من الزمان وكبتا للطاقة الحيوية الكائنة فى الإسلام.

ولقد أدى إلى جمود المسلمين لا فى ناحية الفقه فحسب وإنما فى سائر نواحى تفكيرهم وفى كافة مرافق حياتهم، فى شئون دينهم ودنياهم على السواء.

لذلك هاجم الشيخ رشيد رضا، رحمه الله قفل باب الاجتهاد، وذكر أنه كان مكيدة من جانب السلطان وحيلة للحجر على العقول حتى تسهل عليه القيادة ويفضى اليه الزمام؛

إذ الأمة الجاهلة ـ كما قال أحد الحكام ـ أسلس قيـــادة من الأمة المتعلمة .

وذكر الشيخ رشيد ـ عليه الرضوان ـ أن من العلماء من اجتهد بعد قفل باب الاجتهاد ، كعلمـاء الشافعية ، ولكنهم ـ طبعا كانوا قلائل وكانوا لا يفتون الا إذا أمنوا مكر السلطان ولو حينا من الزمان .

ومن كل هذا يتضح أن ما أحدثه قفل باب الاجتهاد من آثار هى :

١ ـ الرضا والتسليم بالتقليد دون الاجتهاد . وفرق بين الاجتهاد والتقليد .

٢ ـ جمود المذاهب وعدم تقديمهـــا الحلول الشرعية لما تمخض عنه تطور الأيام من مشكلات وعدم تقريرها الأحكام لما استجد من صور المعاملات وغيرها من مظاهر نشاط الإنسان المادى والروحى .

خامساً : دعاة السنة ونشوء فقه السنة

لكل ماقدمت من آثار اختلاف المذاهب وما طرأ عليها من جمود وما قام بها أحيانا من ضعف مرجعه قلة الاستناد للأحاديث ، أخذ يظهر من يدعون إلى الرجوع إلى الكتاب والسنة وحدهما وكان أكبر الداعين إلى ذلك « ابن حزم الأندلسى » الذى ولد سنة ٣٨٤ هجرية وتوفى سنة ٤٥٦ .

١ ـ واسمح لى ياأخى أن أقدم لك نبذة عن « ابن حزم » حتى تعرف إلى أى شىء كان يدعو الناس ، وكيف سار فى دعوته فاضطهد وهو جمت تعاليمه :

كان ابن حزم كثير التآليف بصفة خاصة فى فنى الحديث والكلام ، إلى جانب تأليفه فى اللغة والأدب . وبعد أن كان شافعى المذهب متحمسا لمذهبه تحول إلى الظاهر ، وأصبح ظاهريا متحمسا ، وقد ظهر أثر هذا التحول واضحاعندما ألف « رسالة فى فضل الأندلس » .

والظاهريه قوم قالوا : لانأخذ إلا بظاهر الكتاب والسنة وننبذ ما عداهما ، مالم يوجد دليل على خلاف ذلك . وقد قال بهذه الفكرة داود الظاهرى الذى ولد بالكوفة سنة ٢٠٤ هجرية والذى ذكرت شيئا عنه من قبل .

وعلى ذلك كان ابن حزم لا يعتمد فى فقهه إلا على الكتاب والسنة ، وقد دافع بشدة عن رأيه الذى يبطل فيه كل قياس فقهى لايعتمد على القرآن والحديث فى رسالته المسماة « إبطال القياس والرأى والاستحسان والتقليد والتعليل » وألف كتابه « المحلى بالآثار فى شرح المجلى بالاقتصار » كان يستعرض فيه رأى المذاهب وينقد ما فيها من ضعف ثم يقرر رأيه ويؤيده بدليله من كتاب أو سنة .

والذى نلاحظه هو حدته وتطرفه وميله للمناظرة ؛ فقد هاجم النصارى واليهود والمسلمين على اختلاف مذاهبهم ، وكان كذلك خصما عنيدا ، قال فيه ابن حيان « يصك معارضه صك الجندل » . وكان لايغتفر خطأ وقع فيه إمام يجـــله المسلمون

ويحترمونه كالأشعرى وأبي حنيفـــة ومالك . ومن الأقوال الشائعة . أن قلم ابن حزم كان فى مضاء سيف الحجاج .

ولكنه كان يتوخى إنصاف خصومه دائما ، ولم يكن من طبعه أن يتعمد اختلاق التهم الواهيه عليهم.

ولقد صرح فى رسالته الاخلاقيـة أن حدته كانت ترجع إلى مرض كان يلازمه ، وينتابه بعد أن نظر فى الخـــلاف واشتغل بالتأليف .

ولقد استهدف ابن حزم إلى حنق فقهاء عصره لتعريضه بالرجال البارزين من الفقهاء ، ولاشك أنه كان موضع الحسد من بعضهم لغزارة علمه ، وكان هؤلاء الحانقون ينهون عوامهم عن الاصغاء إلى أخطاء مذهبه وقراءة كتبه ويحذرون سلاطينهم من فتنته وطفق الملوك يقصونه عن قربهم ويسيرونه عن بلادهم

وكان مما يزيد فى التخوف منه تشيعه لبنى أمية ، وقد أدت دسائس هؤلاء الفقهاء المستمرة بابن حزم إلى أن يعتكف ببلده وأحرقت مؤلفاته جهرة فى أشبيلية ، فندد بهذا التصرف

الأحمق فى قصائد لا ذعة وواصل ابن حزم فى عزلته الدرس والتأليف ، وذكر ابنه أبو رافع أن مصنفاته بلغت الأربعمائة وأن صفحاتها بلغت الثمانين ألفا ولم يعد أكثرها عتبة باديته .

هذا هو ابن حزم فى أخذه بفقه السنة وفى تطرفه وفى اضطهاد القوم له .

والذى نلاحظه عليه أن دعوته إلى « فقه السنة » اقترنت بدعوته إلى « التوحيد » فقد هاجم أهل البدع والقائلين بالتوسل بالأولياء والذاهبين مذهب الصوفية وهاجم الفرق الاسلامية فى كتابه « الفصل فى الملل والأهواء والنحل وهاجم لفيف الأشاعرة وخاصة رأيهم فى صفات الله .

ولا أحب أن استطردهنا فى دعوته إلى التوحيد حتى لا نخرج بالبحث عن موضعه ، ولم أسق الحديث عنها هنا إلا لتأكيد تلك الملاحظة التى أبديت : وهى اقتران الدعوة إلى فقه السنة بالدعوة إلى « التوحيد » .

٢ ـ هذا عن ابن حزم ، ثم يأتى من بعده شيخ الإسلام (ابن تيمية) الذى نشأ فى دمشق سنة ٦٦١ هجرية وامتدت به

الحياة إلى سنة ٧٢٨ هـ ، وتقترن دعوته إلى (فقه السنة) بدعوته الى (التوحيد) أيضا ولقد درس فى بدء حياته الفقه الحنبلى بعد وفاة والده، وبرع فى علوم القرآن والحديث والفقه والكلام، ودافع عن السنة والسلف الصالحين من المسلمين بأدلة لم يسبق اليها مع أنها مستقاة من القرآن والحديث ولكن حريته فى الجدل والمناظرة جلبت عليه عداوة الكثيرين من علماء المذاهب الثلاثة الأخرى ، فحكم عليه ان يلقى هو وأخواه فى الجب بقلعة الجبل ثم بعد خروجه سجن بحبس القضاة لأسباب سياسية علم أثناءها أهل الحبس أصول الدين. وبعد أن أخلى سبيله بأيام قلائل اعتقل فى برج الاسكندرية ، وبعد خروجه منه أعتقل فى قلعة دمشق فألف هناك مؤلفات عدة ، ولما وصل خبرها إلى أعدائه جرد من كتبه وأدواته ومداده فكانت صدمة قوية له مرض فيها وتوفى سنة ٧٢٨ هـ .

وهذه نبذة عن تاريخ حياة شيخ الإسلام ابن تيمية استطردت اليها لأظهر العنت الذى لقيه فى سبيل دعوته الى التوحيد والسنة والاضطهاد والذى عرقل أمامه سبيل دعوته.

والذى نلاحظه على ابن تيمية أنه كان من الحنابلة ولكنه رغم ذلك لم يتبع تعاليم ذلك المذهب من غير ما تبصر أو روية بل كان يعتبر نفسه مجتهداً فى المذهب ويعيطينا مرعى كاتب سيرته (الكواكب) عدة مسائل لم يأخذ فيها ابن تيمية (بالتقليد) ولا (بالإجماع) المدعى وهو يصرح بأنه كان يتبع القرآن والحديث بحرفيتهما فى جل مؤلفاته، ولكن كان فى الوقت نفسه لايرى من الخطأ أن يستعين بالقياس فى مناظراته، وعلى الأخص فى «مجموعات الرسائل الكبرى»

٢ ـ ولقد تتلمذ لابن تيمية تلاميذ أخذوا عنه ودافعوا عن آرائه ونشروا كتبه، على رأسهم «ابن قيم الجوزية» (اى ابن القيم على المدرسة الجوزية بدمشق) الذى عاش من سنة ٦٩١ هجرية إلى سنة ٧٥١. وكان فى كل شىء تلميذا أمينا لشيخه ابن تيمية وأخذ بجميع أقواله وناله من الاضطهاد ما ناله حتى فى حياة شيخه، واعتمد أيضا على «الكتاب والسنة فى فقهه» وجاهد فى سبيل إرساء عقيدة «التوحيد».

٤ ـ حركة «محمد بن عبد الوهاب» : فى أوائل القرن الثالث عشر الهجرى (أى منذ مائتى سنة تقريبا) قام فى نجد بالدعوة إلى فقه السنة وإلى عقيدة التوحيد محمد بن عبد الوهاب ، وقد انضم إليه كثير من سكان الجزيرة العربية ، أطلق عليهم خصومهم اسم الوهابيين أو « المذهب الوهابى »

أما ابن عبد الوهاب وأتباعه فكانوا لا يرون أنهم أصحاب مذهب خاص ؛ لإنهم لم يأتوا بشىء جديد وإنما دعوا إلى الكتاب والسنة ونبذ ما يخالفهما ، وقد اتصل مؤسس الوهابية بعلماء دمشق الحنابلة ، فمن الطبيعى أن يكون قد استفاد من مؤلفاتهم وعلى الأخص تعاليم ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية ، فكانت حركة ابن عبد الوهاب هى التطبيق العملى لآراء ابن تيمية وتلميذه من تعبد بفقه السنة وتخليص لعقيدة التوحيد مما داخلها من شوائب .

وحركة ابن عبد الوهاب وإن كانت فى جوهرها سليمة إلا أنها قد شوهت لأغراض سياسية ، ومن نافلة القول أن سلطان الدولة العثمانية قد حاربها بجيوش طوسون ومحمد على

وإبراهيم . ولقد كانت حركة قوية على أى حال اذ أحدثت البعيد فى الجزيرة العربية وما جاورها كمصر ولايزال أثرها باقيا حتى اليوم .

٥ - وإن من خيرة من خدموا فقه السنة ، محمد بن على الشوكانى ، صاحب « نيل الأوطار » ، « والدرارى المضيئة » وغيرها ، فقد كان من جلة علمـــاء القرن الثالث عشر ، ولد بهجرة شوكان باليمن سنة ١١٧٢ هجرية وتوفى سنة ١٢٥٠ ، وهو أول من وضع كتابا كاملا فى فقه السنة سماها « بالدرارى المضيئة » اعتمد فيه على الكتاب والسنة وحدهما ونبذ جانبا الخلافات المذهبية ، وما أجدر أصحاب المذاهب أن يتفقوا على هذا النوع من الفقه الذى ليس لاختلاف الرأى فيه مدخل ، وأن يميزوه فى مؤلفاتهم أو يفردوه كما فعل الشوكانى حتى يكون ذلك أدنى لقلة الخلاف أو انعدامه فى قسم كبير من الفقه تجتمع عليه طوائف المقلدة .

سادسا : حركة فقه السنة فى مصر الان

تقوم حركة فقه السنة فى مصر الآن على اكتاف جماعتين :

ا ـ جماعة أنصار السنة المحمدية من ناحية .

ب ـ وجماعة الإخوان المسلمين من ناحية أخرى .

وتعتبر الأولى امتدادا للحركة الوهابية .

وتعتبر الثانية بعثا لتعاليم الإسلام الصحيحة ودعوة إلى تطبيقها .

ونرجو أن تصل الهمة المبذولة من الجماعتين إلى المبلغ الذى يجمع الناس حول الدعوة التى يدعوان إليها ويجاهدان فى سبيلها .

سابعا : كيف نتعبد بفقه السنة

تنقلت بك من قبل مع فكرة فقه السنة فى تطورها وكيف تلقفها الدعاة وروجوا لها ، ولعلك يا أخى قد أصبحت مقتنعا معى بضرورة التعبد بهذا اللون من الفقه .

١ ـ ولـكن كيف نتعبد به وعلى وفقه ؟

٢ ـ وهل سيمحى الخلاف بين الآراء ؟

٣ ـ وهل سنكون فى غناء عما وصل إليه علماء المذاهب من آراء وما تمخض عنه اجتهادهم من أفكار ؟

١ ـ يقوم فقه السنة أساسا على الكتاب والسنة :

ا ـ فأما الكتاب فأمره ميسور ، فـكله متواتر قطعى الثبوت وحجتـه قطعية الدلالة فى أكثره وكله لا خلاف فى صحته وثبوته .

ب ـ وأما السنة ، فمنها المتواتر ومنها خبر الآحاد، والأول قطعى الثبوت قطعى الدلالة فى أكـثره كذلك ، والثانى ظنى الدلالة وحجتـه ظنية ، والأحاديث منهـا القوى سنده الثقات رواته ، ومنها الضعيف سنده المتهم رواته ، ودرجات الصحـة متفاوتة كما أن درجات الضعف متفاوتة كذلك ، فـكيف نحتكم إلى السنة إذن ؟

الواقع : أن الأمر أيسر من ذلك بـكثير ، فكل هـذه

الأمور قد أفرغ رجال لها حياتهم ووهبوا لها وقتهم وخدموها أجل خدمة ويسمى هؤلاء الرجال « علماء مصطلح الحديث والرواية وفقه السنة» . وقد قرروا أن الحديث المتواتر حجة ويعمل به دائما ، وأن الحديث الآحاد يعمل به مالم يقم دليل أقوى منه يعارضه من حديث متواتر أو آية قرآنية ، وفرزوا لنا الأحاديث وعرفوا القوى منها والضعيف ، ودرسوا رجال الحديث ورواته فعرفوا الموثوق منهم والمتهم ، وعينوا درجات الصحة ودرجات الضعف ، ووضعوا كل حديث تحت نوعه الذى يندرج تحته ، وكفونا مئونة البحث والتنقيب وقدموا لنا السنة خالصة صافية نقية من الميسور الرجوع إليها والأخذ عنها والاعتماد عليها .

٢ ـ سنعتمد إذن على الكتاب والسنة ، ولكن ألن نختلف فى فهمها واستخلاص الأحكام منهما ؟

يا أخى : إن الخلاف ضرورى ، ما اختلفت العقول والنفوس والبيئات والعصور ، ولكنه قطعا سوف تضيق دائرته إلى حد

بعيد إذا اتفقنا على وحدة المرجع والمصدر وتركنا التفريعات جانبا وخصوصا بعد أن أصبحت السنة كلها تقريبا مجمعة ومحصة.

٣ ـ وأخيرا : هل نستغنى عن المذاهب وآرائها ؟

إن رجوعنا إلى الكتاب والسنة مباشرة سيغنينا إلى حد بعيد عن الرجوع إلى آراء المذاهب ، ولكن ذلك لن يقضى على قيمة المذاهب نهائيا ، فنحن مازلنا فى حاجـــة إلى آرائها ، فستظل فى المكان الثانى بعد الكتاب والسنة باعتبارها من وسائل التفسير أو الاستئناس أو الاستنارة أو الاسترشاد كلما أعوزنا فهم حكم من الكتاب أو السنة أو عرض لنا أمر لانص فيه ، فنفيد عندئذ من ثمرة اجتهادهم ، ونرجع إليهم باعتبارهم علماء هذه الأمة وفقهاءها ولا فرق فى ذلك بين أحد منهم ، والأمر فى النهاية مرجعـــه إلى اقتناعنا بوجهتهم واطمئناننا لفكرتهم « استفت قلبك وإن افتاك الناس وأفتوك » .

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

خلاصة

حركة الفقه الاسلامى

شرحت لك من قبل حركة الفقه الإسلامى وخلاصة ماقلناه

أولا : أنه فى عصر الرسالة والخلافة : اعتمد المسلمون على الكتاب والسنة التى رأوا الرسول ينهجها.

وأن السنة لم تدون خشية أن تختلط بالقرآن.

ثانيا : وأنه فى عصر المذاهب : نظمت مسائل الفقه ووضعت لها القواعد والأصول وتكونت مجموعات من الآراء سمى كل منها «مذهبا» واتبعه فريق من الناس ودونوه وقلدوه.

ولاحظنا أن كل مذهب جديد كان يتجمع لديه من الأحاديث التى يعتمد عليها أكثر مما تجمع لمن سبقه ، فمذهب أبى حنيفة أكثر المذاهب عملا بالرأى ومذهب أحمد بن حنبل أكثر المذاهب اعتمادا على الحديث .

ثالثا : وأن حادثا له خطره وقع فى عصر الإمام بن حنبل

هو تجميع السنة على نطاق واسع على يد البخارى أولا ، ثم توالت من بعده جوامع السنة ، فتغير الموقف وأصبح لزاما علينا أن نتبع السنة دون المذاهب :

١ ـ لأمر الرسول ولأن الأئمة أمرونا باتباع السنة قبل اتباع أقوالهم .

٢ ـ ولأن تدوين السنة جاء متأخرا عن المذاهب ولو سبقها لسلم بها الأئمة واعتمدوا عليها .

٣ ـ ولأن بعض آرائهم جانبها التوفيق لعـــدم اعتمادها على السنة .

٤ ـ ولأنه لم يتجمع لدى المذاهب من مجموعات الأحاديث ما تجمع لدينا .

٥ ـ ولأن المذاهب اختلفت فيما بينها فى الفروع وفى أصول الفقه أحيانا .

٦ ـ ولأن خلافها أدى أحيانا إلى تعصب .

٧ ـ ولأن الخلاف قام بين مذهب ومذهب بل وبين أتباع المذهب الواحد أيضا .

٨ ـ ولأن الخلاف دائما سبيل إلى الفرقة والعداوة .

٩ ـ ولأن من العبث التوفيق بين آراء المذاهب المختلفة .

١٠ ـ ولان تقليد إمام واحد غير جائز وقد يستحيل .

١١ ـ ولأنه لا يوجد معيار للتفضيل بين المذاهب حتى نتبع أحسنها ، فانتشارها لم يرجع لأفضليتها وإنما رجع فى الغالب من الأحيان إلى أسباب سياسية .

١٢ ـ أن ما نلتمسه من السنة الآن أكثر مما التمسوه ، نظرا لكثرة الأحاديث التى شملها التدوين ولكثرة وجود المطابع .

رابعا : أن قفل باب الاجتهاد أدى إلى جمود المذاهب .

خامسا : أنه قام دعاة ينادون بوجوب تأسيس الفقه على الكتاب والسنة وحدهما ، وأن دعوتهم إلى « فقه السنة » اقترنت بالدعوة الى « التوحيد » ولعل الجامع بين الدعوتين هو الرغبة فى توحيد صفوف المسلمين وعقائدهم .

وذكرنا أن دعاة هذه الحركة هم ابن حزم الأندلسى ثم ابن القيم ، ثم محمد بن عبد الوهاب ثم الشوكانى .

سادسا : أن حركة فقه السنة فى مصر الآن تقوم على اكتاف جماعة أنصار السنة وجماعة الإخوان المسلمين .

سابعا : أننا بتعبدنا بفقه السنة لا نلقى عننا بعد ما خدم السنة علماء الحديث والرواية وفقه السنة . وأن الخلاف ضرورى ما اختلفت العقول ، ولكن نضيق دائرته إذا اتحد المصدر الذى نستق منه فقهنا .

وأننا لا نستغنى عن آراء الأئمة كلية وإنما نرجع اليها باعتبارها وسائل استئناس وتفسير كلما أعوزنا نص فى الكتاب أو السنة أو أعوزنا فهم النص وتفسيره . والأمر فى النهاية متروك لاطمئنان قلبك واقتناع فؤادك . «وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك . »